جمهورية مصر العربية وزارة الأوقاف	٢٩ ربيع الأول ١٤٤٠ هـ ٧ ديسمبر ٢٠١٨م

(١)

التأسي بأخلاق الرسول الكريم
(صلى الله عليه وسلم)

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه الكريم :{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} ، وأَشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، وأَشهدُ أنَّ سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عَبدُه ورسولُهُ ، اللَّهُمَّ صَلِّ وسلِّمْ وبارِكْ علَيه وعلَى آلِهِ وصحبِهِ ، ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّينِ .

وبعد :

فلقد بعث الله (عز وجل) رسوله محمدًا (صلى الله عليه وسلم) ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليتمم برسالته مكارم الأخلاق ومحاسنها ، فاستوجب ذلك أن يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قمة الكمال البشري بما حباه به ربه من أخلاق فاضلة، وإنسانية كاملة، ولا عجب في ذلك فقد اجتمع في شخصه (صلى الله عليه وسلم) كلُّ ما تفرّق من الخير والمعروف في الأنبياء السابقين، حيث يقول تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}، فهو الأسوة والقدوة التي ارتضاها الله (عز وجل) للناس جميعًا .

ولقد حول (صلى الله عليه وسلم) بأقواله وأفعاله وأحواله تعاليم القرآن الكريم إلى واقع ملموس، فكان قرآنًا يمشي على الأرض ، وما أحوجنا اليوم إلى التأسي والاقتداء بأخلاق الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) ، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به (صلى الله عليه وسلم) ، وهذه بعض جوانب أخلاقه الكريمة ، وصفاته النبيلة التي ينبغي لنا أن نتأسى بها ، ونجعل من هذا التأسي واقعًا عمليًّا في حياتنا.

ومنها :

صدقه وأمانته: فلقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) صادقًا أمينًا طيلة حياته ، حتى لقبوه بالصادق الأمين ، قبل بعثته ، وفي ذلك يقول شوقي:

لقبتموهُ أمينَ القومِ في صغرٍ وما الأمينُ على قولٍ بمتّهمِ

وقد كان لصدقه وأمانته (صلى الله عليه وسلم) -أيضًا- الأثر الواضح في أن يكون أهلًا لمشورة قومه في عظام الأمور التي وقعت بينهم ، ومحل ثقتهم في حفظ أماناتهم ونفائسهم ، ومن أدل المواقف على ذلك ، يوم أن أعادت قريش بناء الكعبة واختلفوا فيما بينهم من ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، حتى يكتمل البناء فوقه ، ثم نزلوا على رأي الوليد بن المغيرة حين قال لهم: اجعلوا أول من يدخل من باب هذا المسجد حكمًا بينكم فيما تختلفون فيه، ففعلوا فكان أَول داخلٍ عليهم رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم)، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا به حكمًا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال صلى الله عليه وسلم: (هلم إليّ ثوبًا) فأُتي به، فأخذ الحجر فوضعه بيده الشريفة ، ثم قال: (لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعًا) ، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بُني عليه، وأنهى النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا الخلاف بحكمته، وثقتهم في صدقه وأمانته .

ولقد ظهر خلق الأمانة جليًّا واضحًا في أعلى صوره وأبهى معانيه في شخص النبي (صلى الله عليه وسلم) ليلة الهجرة المباركة ، حيث أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن ينام في فراشه ، وأن ينتظر ليرد الأماناتِ المودعة عنده إلى أهلها، رغم أنهم ناصبوه العداء ، وأخرجوه وآذوه وآذوا أصحابَه (رضوان الله عليهم) وأخذوا منهم كل ما يملكون ؛ ذلك لأن المؤمن لا تحل له الخيانة حتى مع أعدائه، والله تعالى يقول:{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ

عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ}، وقَالَ (صلى الله عليه وسلم) : (أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ).

* **جوده وكرمه** : فقد كان (صلى الله عليه وسلم) أجود الناس ، وكان يعطي عطاءَ مَن لا يخشى الفقر ، فعن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) قال: (مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) شَيْئًا قَطُّ فَقَالَ: لاَ) ، وعن سهل بن سعد (رضي الله عنهما) قال: جاءت امرأة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) بِبُرْدَةٍ ، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْسُوكَ هَذِهِ ، فَأَخَذَهَا النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، فَلَبِسَهَا، فَرَآهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْسَنَ هَذِهِ فَاكْسُنِيهَا ، فَقَالَ: (نَعَمْ)، فَلَمَّا قَامَ النبي (صلى الله عليه وسلم)لاَمَهُ أَصْحَابُهُ ، قَالُوا : مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا ، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لاَ يُسْأَلُ شَيْئًا فَيَمْنَعُهُ ، فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) لَعَلِّي أُكَفَّنُ فِيهَا).

ولمكانة هذا الخلق الكريم وبيان منزلته أمر به الحق تبارك وتعالى ، وحثَّ عليه سيد المرسلين (صلى الله عليه وسلم) ، حيث يقول سبحانه :{وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}، وفي الحديث القدسي: (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ)، وحثَّ النبي (صلى الله عليه وسلم) على الجود والكرم فقال: (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ ، وَلاَ تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى)، وقال (صلى الله عليه وسلم): (مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ زَادَ لَهُ) .

وسطيته واعتداله: فإن المتأمل في أحكام الشريعة والعقائد التي دعا إليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يرى منهج الاعتدال والوسطية واضحًا في كل مجالات الحياة، تقول أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : (مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا ، فَإِذَا كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ عنه) ، وقال (صلى الله عليه وسلم) : (إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ).

ومن أجل المحافظة على هذه الوسطية ، وذلك الاعتدال حذر النبي (صلى الله عليه وسلم) من كل مظاهر الغلو وخاصة الغلو في التدين، فأنكر على من بالغ من أصحابه (رضوان الله عليهم) في التعبد والتقشف مبالغةً تخرجه عن حدّ الاعتدال ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ) ، وعَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ (رضي الله عنه) ، قَالَ: خَرَجْتُ ذَاتَ يَوْمٍ لِحَاجَةٍ، فَإِذَا أَنَا بِالنَّبِيِّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَمْشِي بَيْنَ يَدَيَّ، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي مَعًا، فَإِذَا نَحْنُ بِرَجُلٍ بَيْنَ أَيْدِينَا يُصَلِّي، يُكْثِرُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (أَتَرَاهُ يَرَانِي – أَوْ قَالَ يُرَائِي؟) قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَتَرَكَ يَدَهُ مِنْ يَدِي، وَجَمَعَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَجَعَلَ يُصَوِّبُهُمَا وَيَرْفَعُهُمَا، وَيَقُولُ: (عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا، عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا، عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا، فَإِنَّهُ مَنْ شَادَّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبْهُ).

ولا شك أن الاعتدال الذي دعا إليه النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يكن قاصرًا على الأمور التعبدية وصلة العبد بربه فحسب ، بل كانت دعوته للاعتدال دعوة شاملة لكل مناحي الحياة ، ففي دعائه وتَبتله كان صلى الله عليه وسلم يقول: (اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ

لِي آخِرَتِي الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِي) ، وعن المِقْدَامِ (رضي الله عنه)، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يَقُولُ: (مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ) .

* **الإنصاف وإعطاء كل ذي حق حقه** : لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم ، أو غني وفقير ، أو قريب وبعيد ، أو حاكم ومحكوم ، أو لونٍ ولونٍ ، فالمسلم مطالب بأن يحقق العدل مع جميع الناس سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين ، وألا يظلم أحدًا من الناس أبدًا ، قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}، وقال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}، وقال تعالى:{وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}، أي: لا يحملنّكم كراهية قوم وبغضهم على عدم التعامل بالعدل معهم.

ولله درّ القائل:

إن الوفاء على الكريم فريضة واللؤم مقرون بذي الإخلاف
وترى الكريم لمن يعاشر منصفًا وترى اللئيم مجانب الإنصاف

ولقد حثَّنا القرآن الكريم على هذا الخلق العظيم ، وأمر به في كثير من آياته البينات ، وليس أدل على ذلك من أن ينزل جبريل الأمين (عليه السلام) على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم) بآيات تتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فيها براءة يهودي اتهمه مسلم بالسرقة ، فقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا *وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

غَفُورًا رَحِيمًا* وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا}.

وهذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل وفاته يعلمنا الإنصاف حتى من نفسه، فقد أخذ بيد الفضل بن العباس حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْمِنْبَرِ ، ثُمَّ قَالَ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ قَدْ دَنَى مِنِّي حُقُوقٌ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ، فَمَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهْرًا فَهَذَا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ، وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضًا فَهَذَا عِرْضِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ، وَمَنْ كُنْتُ أَخَذْتُ لَهُ مَالًا، فَهَذَا مَالِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ ، ولَا يَقُولَنَّ رَجُلٌ: إِنِّي أَخْشَى الشَّحْنَاءَ مِنْ قِبَلِ رَسُولِ اللَّهِ، أَلَا وَإِنَّ الشَّحْنَاءَ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِي، وَلَا مِنْ شَأْنِي، أَلَا وإِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ مَنْ أَخَذَ حَقًّا إِنْ كَانَ، أَوْ حَلَّلَنِي فَلَقِيتُ اللَّهَ (عز وجل) وَأَنَا طَيِّبُ النَّفْسِ، أَلَا وَإِنِّي لَا أَرَى ذَلِكَ بِمُغْنٍ عَنِّي حَتَّى أَقُومَ فِيكُمْ مِرَارًا).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدًا عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

إخوة الإسلام :

إن الناظر في أخلاق بعض المسلمين ومعاملاتهم في زماننا هذا يجدهم أبعد ما يكون عن الامتثال الصحيح لتعاليم الإسلام، فالإسلام بتعاليمه وهديه وسماحته وعدله ووفائه وبره في واد ، وبعض المسلمين بسلوكهم وأخلاقهم ومعاملاتهم في واد آخر .

ولنعلم جميعًا أن الله (عز وجل) قد جعل اتباع نبيه (صلى الله عليه وسلم) والاقتداء بأفعاله، والتأسي بأخلاقه، دليلًا على محبة العبد لربه، وفي هذا يقول الحق

سبحانه: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

كما أن اتباعه وطاعته (صلى الله عليه وسلم) هي طاعة لله (عز وجل)، فقد قرن الله (عز وجل) في كتابه الكريم بين طاعته وطاعة نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، وجعل قبول أحدهما مقرون بفعل الآخر ، فقال سبحانه: {مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} ، ويقول سبحانه: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} .

فما أحوجنا إلى التأسي برسول الله (صلى الله عليه وسلم) والاقتداء بهديه ، واقتفاء أثره في نشر رسالة النور والهداية صافية رائقة كما أنزلها الله تعالى إلى الخلق أجمعين ، باللين والرفق والرحمة وتأليف القلوب ، فرسالة الإسلام عدل كلها، رحمة كلها، تسامح كلها، نفع كلها ، إنسانية كلها.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واحفظ مصر وأهلها من كل سوء